

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

[فصلٌ (غزوة حمراء الأسد) : ولما أصبح يوم الأحد ندب الرسول ﷺ المسلمين إلى النهوض في طلب العدو إرهاباً لهم، وهذه غزوة حمراء الأسد، وأمر أن لا يخرج معه إلا من حضر أحدًا ، فلم يخرج إلا من شهد أحدًا سوى جابر بن عبد الله ؛ فإنه كان أبوه استخلفه في بناته، فقتل أبوه يوم أحد ، فاستأذن رسول الله ﷺ في الخروج إلى حمراء الأسد فأذن له . فنهض المسلمون كما أمرهم ﷺ وهم مثقلون بالجراح حتى بلغ حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة فذلك قوله تعالى : {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٧٢] ، ومرو معبد بن أبي معبد الخزاعي على رسول الله ﷺ وأصحابه ، فأجازه حتى بلغ أبا سفيان والمشركين بالروحاء فأخبرهم أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد خرجوا في طلبهم ، ففت ذلك في أعصاب قريش وكانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة ، فثناهم ذلك واستمروا راجعين إلى مكة ، وظفر ﷺ بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص فأمر بضرب عنقه صبراً ، وهو والد عائشة أم عبد الملك بن مروان ، فلم يقتل فيها سواه] .

هذا فصلٌ عقده الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في الحديث عن غزوة حمراء الأسد ، ونسبة هذه الغزوة إلى حمراء الأسد هي نسبة إلى جبل لونه أحمر عن المدينة إلى جهة الجنوب بعد ذي الحليفة بما يقارب ٢٠ كلم تقريباً إلى جهة مكة ؛ فنُسب هذه الغزوة إليه لأن النبي عليه الصلاة والسلام انطلق إلى هذا المكان ، وكان الغرض من هذا الانطلاق إلى هذا المكان على إثر غزوة أحد في اليوم الذي يلي يوم الغزوة مباشرة - لأن الغزوة كانت يوم السبت - ففي يوم الأحد أمر النبي عليه الصلاة والسلام الذين شهدوا أحداً أن يتجهوا معه إلى هذا الموضع، وكان المقصد من ذلك إرهاب العدو ، وبيان أنَّ المسلمين لا يزالون على قوتهم وشدتهم ونشاطهم وملاحقتهم للأعداء، وحتى أيضاً يُفَتَّ عضد العدو ويقع في قلبه الخوف من المسلمين ، وهذا أيضاً فيه دلالة على شجاعة المسلمين وصبرهم وقوة تحملهم ، فرغم كونهم مصابين بجراح ومثخنين بعد المعركة مباشرة في اليوم الذي يلي يوم المعركة كما في الآية الكريمة التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] ، بالرغم من ذلك كله استجابوا للرسول عليه الصلاة والسلام وانطلقوا إلى حيث كان أمرهم عليه الصلاة والسلام أن ينطلقوا إليه .

وسبب هذه الغزوة يقول موسى بن عقبة : ((قديم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ فاستخبره عن أبي سفيان وأصحابه ، فقال نازلتهم - أي نزلت قريباً من مكانهم - فسمعتهم يتلاومون ؛ يقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبثروهم فبقي منهم رؤوس يجمعون لكم . قال موسى بن عقبة : وأمر رسول الله ﷺ أصحابه وبهم أشد القرع بطلب العدو ليسمعوا بذلك ، وقال عليه الصلاة والسلام : «لا ينطلق معي إلا من شهد القتال»)) .

وقال أيضاً ابن إسحاق رحمه الله تعالى في بيان سبب خروج النبي عليه الصلاة والسلام : ((إنما خرج مرهباً للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا بالمسلمين أنهم لا يزالون على القوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن العدو)).

ولهذا تعتبر هذه الغزوة تنمة لغزوة أحد وتكملة لها لأن المشركين لما ذهبوا وانطلقوا من الموقع وكانوا أيضاً منهم من يفكر في الرجوع ومعاودة الكرّة ؛ فبهذا الأمر الذي قام به النبي عليه

الصلاة والسلام ألقى في قلوب الأعداء الرعب واستمروا ماضين إلى مكة دون أن يفكرون في العودة لمقاتلة النبي ﷺ وصحابته الكرام .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((ولما أصبح يوم أُحُد)) وفي بعض النسخ (يوم الأحد) ، فإن هذه الانطلاقة كانت يوم الأحد ليست عشرة ليلة مضت من شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ففي اليوم نفسه في آخر النهار كثر المشركون راجعين إلى مكة ، وهذا الرجوع في نفس اليوم من الدلائل على أنه لم يكن هناك انتصار يرجوه المشركون أو يحقق مطامعهم من المسلمين ، لأن من عادة المنتصر أن يبقى في ساحة المعركة أياماً ثلاثة أو نحو ذلك ، ولهذا أيضاً كانت المدينة مفتوحة ومع ذلك لم يتقدموا إلى المدينة لنهب أو لسي أو نحو ذلك بل رجعوا إلى مكة ولم يرجعوا بشخص واحد سبوه من المسلمين ، ولم يرجعوا بغنيمة أموال أخذوها من المسلمين ، ومن قُتل في هذه المعركة من المسلمين وعددهم سبعون هؤلاء اصطفاهم الله ﷻ في هذه الساحة فقتلوا في سبيله واتخذهم شهداء ، فهذه مكرمة لهم ولهذا كما قال بعض الصحابة : ((قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاكُمْ فِي النَّارِ)) .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : ((ولما أصبح يوم أُحُد - أو يوم الأحد - ندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى النهوض في طلب العدو إرهاباً لهم ، وهذه غزوة حمراء الأسد ، وأمر ألا يخرج معه إلا من حضر أُحُدًا)) ؛ أي من كان قد شارك في غزوة أُحُد أذن له في هذا الخروج ، أما من لم يتيسر له المشاركة فإنه لم يأذن له ﷺ في الخروج . ((سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فإن النبي ﷺ قد أذن له)) ؛ والسبب بينه ابن كثير قال :

((فإنه كان أبوه استخلفه في بناته)) ؛ كان له بنات صغار وجاء أيضاً في بعض المصادر في البخاري أن عدد البنات سبع بنات ، وفي رواية على الشك سبع أو تسع ، فطلب منه والده أن يبقى في رعاية البنات ويلاحظ شؤونهن فترة مغيب والده في هذه المعركة ، وحقق ﷺ قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)) .

قال : ((فقتل أبوه يوم أُحُد)) ؛ كان والد جابر عبد الله رضي الله عنهما ممن استشهد في هذه المعركة .

((فاستأذن - جابر رضي الله عنه - رسول الله ﷺ في الخروج إلى حمراء الأسد ، فأذن له)) ؛ أي النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

هنا أيضاً نقف وقفة لا تطول مع جابر رضي الله عنه وأخواته ؛ تخلف رضي الله عنه عن معركة أحد بناءً على طلب والده رعاية لأخواته ، وأيضاً بعد وفاة والده لا يزال يحفظ وصية والده في أخواته ، ومن عظيم قصصه رضي الله عنه في هذا الباب : أنه لما أراد أن يتزوج وهو في شبابه تزوج امرأة ثيباً - والخبر جاء في الصحيحين - ولقيه النبي عليه الصلاة والسلام وسأله قال : " تزوجت ؟ " قال : نعم ، قال : " بكرة أم ثيبا ؟ " فقال رضي الله عنه : بل ثيباً ، فقال له عليه الصلاة والسلام : " هلاً بكرةً تلاعبها وتلاعبك " ، وأيضاً في بعض المصادر زيادة "تضاحكها وتضاحكك" ، فقال رضي الله عنه : "إن لي أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعنهن وتمشطهن وتقوم عليهن" ، وجاء في رواية في الصحيح أنه قال : "توفي والدي ولي أخوات صغار فكرهت أن أتزوج مثلهن - يعني شابة صغيرة مقارب سنها لسنهن - فلا تؤدبهن ولا تقوم عليهن فتزوجت ثيباً " ؛ فاختار رضي الله عنه امرأة تكون على ذربة ومعرفة في رعاية الصغار تمشطهن تؤدبهن وتقوم على شؤونهن . فهذا من الأمثلة الرائعة العظيمة في الإيثار ، وأيضاً في الدلالة على فضيلة هذا الصحابي الجليل ، وعادةً الشاب في أول زواج له ما يفكر إطلاقاً أن يأخذ امرأة تكبره سنّاً أو ثيباً كانت قبل ذلك تحت غيره ، لكنه رضي الله عنه قدّم حظ أخواته الصغيرات اليتيمات على حظه الخاص ، وكان هذا الإحسان والصنيع العظيم سبب رزق وخير ساقه الله ﷻ له لما أحسن إلى أخواته ، وكان يتحدث بنعمة الله ﷻ عليه في ذلك في بعض الأخبار والروايات التي رويت عنه رضي الله عنه .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((فنهض المسلمون كما أمرهم ﷺ وهم مثقلون بالجراح حتى بلغوا حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة)) ؛ الجراح والقرح والمصاب كان في يوم السبت ، والانطلاقة إلى حمراء الأسد في يوم الأحد ، لم يكن بعد أيام يرتاح فيها المتعب ويتداوى فيها الجريح و إلخ ، وإنما في اليوم الذي يلي هذا اليوم مباشرة أمرهم النبي عليه الصلاة والسلام فلم يكن منهم جميعاً إلا الاستجابة والطوعية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال : ((فذلك قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٢])) ؛ فهذه استجابة عظيمة وأيضاً مثال عالي جداً لقوة استجابة الصحابة رضي الله عنهم وللرسول عليه الصلاة والسلام ولنصرة دين الله جل وعلا.

قال : ((ومَرَّ معبد بن أبي معبد الخزاعي على رسول الله ﷺ وأصحابه)) ؛ قال ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد : " وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذه " ؛ مر معبد بالنبي ﷺ في حمراء الأسد وأسلم ﷺ ، فأمره صلوات الله وسلامه عليه أن يلحق بأبي سفيان ويخذه يذكر له أن النبي ﷺ والصحابة انطلقوا في ساقطكم وهم يحيشهم وعتادهم وخيلهم وهم الآن في حمراء الأسد ؛ تخذيلاً للمشركين وقتاً في عضدهم . فمضى ﷺ في تنفيذ ما أمره به النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال : ((فأجازه حتى بلغ أبا سفيان والمشركين بالروحاء)) ؛ بئر الروحاء معروفة ، المسافة قرابة الثمانين كيلومتر أو يزيد ، يعني هم كانوا أبعد عن النبي ﷺ بمرحلة وزيادة عليها قليلاً . ((فأخبرهم أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد خرجوا في طلبهم ، ففت ذلك في أعضاد قريش)) ؛ لأنهم قالوا : لم تصنعوا شيئاً وبقي فيهم بعض الرؤوس وسيجمعون الناس عليكم ولم تقطعوا دابرهم إلى آخر الكلام الذي كانوا يتحدثون فيه ، فلما جاءهم معبد وحدثهم بهذا الكلام وأخبرهم أن القوم وراءهم كان ذلك فتاً في عضد القوم.

قال : ((وقد كانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة فثناهم ذلك واستمروا راجعين إلى مكة)) ؛ أبو سفيان وهم في الطريق إلى مكة لقي رجلاً وسأله إلى أين هو متوجّه ؟ قال : إلى المدينة ، فقال : ألا أعطيك رسالة تبلغها محمداً وإذا جئت مكة فيما بعد أملاً لك حمل بعيرك زيباً - يعني وعده بعطية جزلة إذا نفّذ هذه الوصية - فاستجاب الرجل ، فقال له : " إذا أتيت محمداً وصحبه أبلغهم أن القوم قد جمعوا لكم " يعني تجيشوا واستعدوا ، يريد بذلك إرهاب النبي ﷺ والصحابة الكرام ، فلم يزد هذا التخويف وهذا الإرهاب النبي ﷺ والصحابة الكرام إلا إيماناً وثقة بالله وتوكلاً عليه ﷻ ، وفي هذا قال الله ﷻ ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَاتَقَبَّلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يُمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ ﴿ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ ؛ وهذه كلمة عظيمة جداً ، وهي كلمة توكل واستعانة بالله ﷻ ، وهي كما أسلفت تقال في طلب الخير والنعمة والعافية ، وأيضاً تقال في طلب دفع البلاء والضرر ؛ فإذا كان الإنسان يخشى أمراً أو يخاف عدواً أو نحو ذلك يُشرع له أن يقول في هذا المقام ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ ، وأيضاً في مقام طلب الخير إذا خرج الإنسان في حاجة ، في طلب رزق ، في طلب تجارة ، أو نحو ذلك يُشرع له أن يقول ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ يطلب من الله كفايته وعونه .

قال : ((وظفر ﷺ بمعاوية ابن المغيرة ابن أبي العاص)) ؛ ذكر في السير والأخبار أن معاوية هذا كان قد مثل بحمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام لما رآه قتيلاً في المعركة - والتمثيل : هو العبث بوجه الإنسان وأجزاء بدنه مثل قطع الأذن أو قطع الأنف أو تشريط الوجه إلخ - ثم بعد المعركة انهزم ومضى على وجهه ، ونام قريباً من المدينة منهكاً من التعب والإعياء وجيش المشركين قد مضوا في طريقهم ، فجاء بعض الصحابة ووجدوا هذا العدو نائماً فأخذوه .

قال : ((فأمر بضرب عنقه صبراً)) ؛ في كتب اللغة يُقال للرجل إذا شُدَّت يداه ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى تُضرب عنقه : " قُتِلَ صبراً " يعني حُبس وقُيِّد وشُدَّ ليقتل ، لأن الصبر هو الحبس ، فالذي يُقتل في ساحة المعركة وفي الحرب لا يُقال قتل صبراً ، لكن الشخص الذي يُمسك ويُشد ويُربط أو يُمسكه آخر ويُقتل على هذه الحال يقال " قُتِلَ صبراً " ، وهذه الكلمة مرت معنا في أكثر من موضع .

قال : ((وهو والد عائشة أم عبد الملك ابن مروان ، فلم يقتل فيها سواه)) ؛ يعني غزوة حمراء الأسد لم يُقتل فيها سوى هذا الرجل ؛ معاوية ابن المغيرة .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (بعث الرجيع) : ثم بعث ﷺ بعد أحد بعث الرجيع وذلك في صفر من السنة الرابعة ، وذلك أنه ﷺ بعث إلى عضل والقارة بسؤالهم رسول الله ﷺ ذلك حين قدموا عليه وذكروا أن فيهم إسلاماً ، فبعث ستة نفر في قول ابن إسحاق ، وقال البخاري في صحيحه كانوا عشرة . وقال أبو القاسم السهيلي : وهذا هو الصحيح . وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي . ومنهم خبيب بن عدي ، فذهبوا معهم فلما كانوا بالرجيع وهو ماء هذيل بناحية الحجاز بالهدأة غدروا بهم ، واستصرخوا عليهم هذيلاً فجاءوا فأحاطوا بهم فقتلوا عامتهم ، وكان في شأنهم آيات - رضي الله عن جميعهم - ، واستأسر منهم خبيب بن عدي ورجل آخر وهو زيد بن الدثنة ، فذهبوا بهما فباعوهما بمكة وذلك بسبب ما كانا قتلا من كفار قريش يوم بدر . فأما خبيب رضي الله عنه فمكث عندهم مسجوناً ثم أجمعوا لقتله فخرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه فاستأذنهم أن يصلي ركعتين فأذنوا له : فصلاهما ثم قال : والله لولا أن تقولوا أن ما بي جزع لزدت ، ثم قال : ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وقد قال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا تُضرب عنقه ، وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه . ثم وكلوا به من يحرسه ، فجاء عمرو بن أمية فاحتمله بخدعة ليلاً فذهب به فدفنه . وأما زيد بن الدثنة رضي الله عنه فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه [

ثم عقد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الفصل في الكلام على بعث الرجيع ، والرجيع : هو ماء يقع شمال مكة المكرمة على قرابة سبعين كيلو متراً قبيل عسفان بقليل ، ولكون الواقعة كانت وقعت هناك فنُسب البعث إليها ، يُقال « بعث الرجيع » .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((ثم بعث ﷺ بعد أحد بعث الرجيع ، وكان ذلك في صفر من السنة الرابعة)) ؛ غزوة أحد كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وكان بعث الرجيع في صفر من السنة الرابعة للهجرة ، فتكون بعد أحد بقرابة الأربعة شهور تقريباً .

((وذلك أنه ﷺ بعث إلى عضل والقارة - وهما من الهون ابن خزيمة ابن مدركة - بسؤالهم رسول الله ﷺ ذلك حين قدموا عليه ، وذكروا أن فيهم إسلاماً)) ؛ يعني قدم عليه نفر من هؤلاء وتحدثوا عن أنفسهم أن عندهم في منطقتهم إسلام ومسلمين فطلبوا أن يرسل معهم عليه الصلاة والسلام من يشرح لهم الإسلام ويعلمهم ويقرئهم القرآن .

((فبعث ستة نفر في قول ابن إسحاق ، وقال البخاري في صحيحه كانوا عشرة . وقال أبو القاسم السهيلي - صاحب كتاب الروض الأنف - : وهذا هو الصحيح)) أي : الذي ذكره الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الصحيح .

قال ابن كثير : ((وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنهم)) أي عنه وعن الصحابة الذين بعثهم النبي ﷺ ، هكذا جاء في سيرة أبي إسحاق مرسلاً ، وجاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر عليهم عاصم ابن ثابت رضي الله عنه ، والسهيلي في الروض الأنف أيضاً قال : " هذا هو الصحيح " ، أي أن الذي أمر النبي ﷺ هو عاصم ابن ثابت رضي الله عنه .

قال : ((ومنهم خبيب ابن عدي)) ؛ يعني من جملة هؤلاء العشرة خبيب ابن عدي رضي الله عنه . ((فذهبوا معهم)) أي أرسلهم مع هؤلاء العشرة يفقهون ويعلمون ويقرؤون الناس القرآن . ((فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بالهدأة - غدروا بهم)) ؛ يعني لما وصلوا إلى ذلك المكان انكشف المكنون وظهر مقصد هؤلاء القوم وأنهم لم يكونوا صادقين عندما جاؤوا للنبي عليه الصلاة والسلام ويقولون عندنا إسلام ونحتاج من يعلمنا ويفقهنا في الدين ، فلما وصلوا إلى هذا الموضع المعروف بالرجيع غدروا بهم .

((واستصرخوا عليهم هذيلًا)) ؛ استعدوهم عليهم ودعوهم لمقاتلتهم وقتالهم . ((فجاءوهم فأحاطوا بهم)) ؛ وهذا غدر وخيانة ، القوم لم يذهبوا لقتال ، ذهبوا يُقرؤون ويفقهون ويعلمون فغدروا بهم وجمعوا عليهم جمعاً من هذيل فأحاطوا بهم ((فقتلوا عامتهم)) .

((وكان في شأنهم آيات رضي الله عن جميعهم)) ؛ عندما تقرأ قصة هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم تجد الآيات لا تتوقف ، والمراد بالآيات : الأعلام أو الدلائل أو البراهين أو المعجزات الدالة على إكرام الله ﷻ لهؤلاء نفر العشرة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأيضاً في

الوقت نفسه هذه الآيات هي ثمرة الاتباع والاستجابة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا كلها تُعد من أعلام نبوة النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه. جاء في إمتاع الأسماع للمقريزي رحمه الله تعالى قال : " قد تضمن هذا الخبر عشرة أعلام من أعلام النبوة " ثم ساقها.

من تلکم الآيات: أن قريشاً لما بلغهم أن عاصم ابن ثابت قُتل من جملة الذين قتلوا في الموقع في الرجيع بعثوا من يأتي لهم بأجزاء من جسده يتأكدون أنه هو فعلاً هو عاصم ابن ثابت الذي كان قتل بعض عظماءهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر - حشرة أو طائر غطت جسده - ما استطاعوا أن يتقدموا إليه ليأخذوا شيئاً من بدنه ليذهبوا به إلى كفار قريش للتحقق أنه هو نفسه فرجعوا دون أن يتحقق ، فكانت هذه آية من الآيات ، وهذا في صحيح البخاري .

وأيضاً قصة حُبيب ﷺ لما أخذ أسيراً في بني الحارث وتذكر إحدى بنات الحارث أنه كانت ترى عنده قِطْف من العنب يأكل منه وما في مكة في ذلك الوقت ثمر ، وتقول : رزق رزقه الله إياه .

عاصم ﷺ لما غدروا بهم وتقدموا لقتلهم قال: " اللهم أبلغ نبيك أمرنا " ، فأبلغ الله نبيه وبلغه في الحال .

فظهر آيات كثيرة لهؤلاء الصحابة في هذه الواقعة.

قال: ((واستأسر منهم خبيب ابن عدي ورجل آخر وهو زيد ابن الدثنة فذهبوا بهما فباعوهما بمكة)) استأسروا ثلاثة سلّموا أنفسهم ، والسبعة قاتلوا حتى قُتلوا في الواقعة ، وهؤلاء الثلاثة الذين سلّموا أنفسهم أيضاً غدروا بهم وخدعهم ، فقيّدوهم وساقوهم وأخذوهم إلى مكة ، فواحد من هؤلاء الثلاثة - لم يسمّه ابن كثير - لما رأى الأمر كذلك مانع وامتنع من المسالبة فقاموا وقتلوه ، أصبح الذين قُتلوا شهداء في سبيل الله ثمانية .

واستأسروا منهم خبيب ابن عدي وزيد ابن الدثنة فذهبوا بهما فباعوهما بمكة لأعدائهم ، كلٌّ اشترى من يعلم أنه كان في المعركة قُتل قريباً له ، اشتراه لا لشيء إلا ليقتله .

((وذلك بسبب ما كانا قتلا من كفار قريش يوم بدر)) يعني كان سبب شراء هؤلاء لهم ليقتلوهم بقتلاهم يوم بدر .

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله قصة هذين الصحابييين الأسيرين ؛ قال : ((فأما خبيب فمكث عندهم - لأنه بيع على بني الحارث ابن العامر ابن نوفل - فمكث عندهم مسجوناً)) .
 ((ثم أجمعوا لقتله فخرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه)) ؛ لماذا خرجوا به إلى التنعيم ؟ - ولفظ الحديث في البخاري ((فخرجوا به إلى الحل)) - لأن التنعيم هو أدنى الحل ، فخرجوا به إلى الحل ليقتل هناك احتراماً للبلد الحرام ومراعاة لحرمته ، مع أن دم المسلم أشد حرمة عند الله ﷻ من البلد الحرام ، فيتورعون عن قتله في البلد الحرام احتراماً للبلد الحرام ثم يقدمون على قتل دم مسلمٍ بغير حق!! .

قال : ((فاستأذنهم أن يصلي ركعتين فأذنوا له : فصلاهما ثم قال : والله لولا أن تقولوا أن ما بي جزع لزدت)) ؛ يعني لطوّلت في الصلاة ، لكنه لم يطوّل في الصلاة حتى لا يقولوا : الرجل به جزع أو به خوف .

زاد الإمام البخاري رحمه الله عندما ذكر الخبر في الصحيح قال : ((فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ)) .

قال ابن كثير رحمه الله في البداية : " قال السهيلي : وإنما صارت الركعتان سنة عند القتل لأنهما فعلتا في زمن النبي ﷺ فأقر عليها واستحسن منه " ثم ذكر أيضاً بعض من كان منهم هذا الأمر ، يعني عندما أريد أن يُقتل طلب أن يصلي ركعتين مثلما فعل خبيب رضي الله عنه .

((ثم قال: ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنبٍ كان الله مصرعي وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصالٍ شلوٍ مُمزّع)) أي : جسم ممزّع .

فلم يكن رضي الله عنه مبالياً بسوقهم له للقتل ولإزهاق روحه لأنه ما دام أن هذا في سبيل الله وأنه يُقتل مسلماً ، بل كان بعض الصحابة إذا توجه إليه السهم أو السيف وتحقق أنه قد قُتل قال: "فزت ورب الكعبة " يعني يرون أن هذا أمر هو من الفوز المبين طالما أن هذه النفس تخرج في سبيل الله ﷻ .

((ثم قام إليه عقبة ابن حارث النوفلي فقتله)) ؛ النوفلي من بني النوفل وهو الذي كان أسيراً عندهم واشتروه ليقتلوه بقتلاهم في بدر .

هنا فائدة ينبغي التنبيه لها : في هذه الغزوات تمر علينا بعض الأسماء مثل : وحشي في قتله لحمزة ، وعقبة بن الحارث النوفلي في قتله لخبيب ، قد يتسرع بعض الناس في مثل هذا الموقف فيدعو على الشخص في مثل هذا المقام !! فمثل هذه الأحداث أحداث السيرة وتسلسلها هذه معارك دارت بين المسلمين والكفار ولا يزال الإسلام في ظهور وفي عز ، والكفر والكافرين في انحسار ، وكثير من هؤلاء الذين حصل منهم أذى أو قتل لعدد من المسلمين أكرمهم الله ﷺ بالإسلام والإسلام يجب ما قبله ، قد جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((يُضْحَكُ اللَّهُ لِرَجُلَيْنِ يُقْتَلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَالُوا كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ يُقْتَلُ هَذَا فَيَلْبِغُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْآخَرِ فَيَهْدِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُسْتَشْهِدُ)) .

عقبة بن الحارث النوفلي الذي قتل خبيب ﷺ كان من مسلمة الفتح ، يعني ممن أكرمهم الله تبارك تعالى بالإسلام يوم فتح مكة .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((وقد قال له أبو سفيان)) ؛ يعني قال أبو سفيان لخبيب في لحظة القتل لما كان مصلوباً وقُدِّمَ للقتل .

((أيسرُك أن محمدًا عندنا تُضرب عنقه - يعني يكون هو مكانك - وأنت في أهلك؟)) يعني الآن الرجل ليس بينه وبين القتل إلا لحظة ، فيعرض عليه هذا العرض أو يختبره هذا الاختبار (أيسرُك أن محمدًا مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلك ؟) فانظر الجواب .

قال : ((والله ما يسرُّني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه فتصيبه شوكة تؤذيه)) ؛ جاء عن أبي سفيان لما سمع هذا الكلام قال : " ما رأيت من الناس أحدا يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدًا " . هذا الحب حب إيمانٍ ودين وتقرب إلى الله يرجى به عالي الدرجات ورفيع المنازل عند الله ﷻ ، ليس حب مصانعة ولا حب لمصالح ومنافع وأغراض وما إلى ذلك ، ولهذا حب الصحابة ﷺ أروع حب وأجمله وأعظمه وأعلاه وأرفعه ، وإذا أراد الإنسان فعلاً أن يحقق المحبة لله وأن يحقق المحبة لرسول الله ﷺ فلينظر إلى هذا الحب الصادق ، الحب المفعم ، الحب الذي ملأ قلوب الصحابة ﷺ فظهر في مقامات عديدة بأروع ما يكون مثلاً في المحبة وتحقيقها في أبهى صورها ، لا المحبة المصطنعة أو المحبة المتكلفة أو المحبة التي يهدف صاحبها من وراءها مآرب ومنافع ومصالح وحاجات دنيوية ، قد يزعم

زاعم بمحبة أحد من الصالحين وهو يرجو بذلك مصالح ومطامع وأغراض وأشياء من هذا القليل. أما حب الصحابة هذا شيء آخر ، ولهذا قال أبو سفيان رضي الله عنه : " ما رأيت أحدا من الناس يحب أصحابه كحب أصحاب محمدٍ محمدًا " ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، هذا عدو كان في ذلك الوقت عدو ، ثم أسلم رضي الله عنه وأرضاه .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((وقد قال له أبو سفيان)) ؛ الضمير هنا يعود على خبيب لأنه هو المذكور ، جاء في البداية والنهاية للمؤلف نقلاً عن ابن إسحاق أن المخاطب بذلك هو زيد ابن الدثنة رضي الله عنه . وعلى كلِّ سواء كان هذا أو ذاك الكل هذا شأنه وهذه حاله ، وتلك هي محبتهم الصادقة العظيمة للنبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

ولهذا ؛ لما يقرأ الإنسان مثل هذه القصص والأحداث والأخبار العظيمة ينبغي أن ينمّي في قلبه حب الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومعرفة فضلهم وأقدارهم ومكانتهم ومنازلهم العلية ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ قَالَ : ((الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) فإذا كان في القلب محبة صادقة للصحابة ليس فيه غل ولا ضغائن ولا أحقاد ولا أمراض ولا عداوات ، فهذا حقيقة غنيمة عظيمة وكبيرة جداً فيتشبت الإنسان بذلك ويجاهد نفسه على التأسّي والإقتداء وقراءة أخبار هؤلاء العطرة رضي الله عنهم كما قال القائل:

كرر علي حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

يعني كم يحس الإنسان من نفسه وهو يقرأ مثل هذه الأخبار من أمور تذهب عن صدره ، وخير يتحرك في نفسه، وزيادة في الإيمان يُكرم بها !! بخلاف ما إذا انشغل الإنسان بقراءة سير التافهين وأخبار الضائعين فتمرض القلب ، بينما هذه السير المباركة تحرك في القلب الحب ، ومن كان بهم أشبه كان للخير أقرب ، وهذا إنما يكون بالمطالعة وتنمية المحبة الصادقة لهؤلاء الصحب الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم وجمعنا بهم في جنات النعيم .

وندعو في هذا المقام الكريم بدعوة نبينا عليه الصلاة والسلام : ((اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك)) ، وأيضاً بما جاء في كتاب ربنا عز وجل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

قال رحمه الله تعالى : ((ثم وكلوا به من يحرسه)) أي وكلوا بخبيب بعد أن قتلوه وصلبوه على خشبه .

((فجاء عمرو ابن أمية الضمري رضي الله عنه فاحتمله بجذعة ليلاً)) ؛ هكذا جاء في نسخ الكتاب "بجذعة ليلاً" ، والذي في زاد المعاد - والكتابين بينهما توافق كبير وتطابق في كثير من المواضع - "فاحتمله بجذعه ليلاً" يعني حمل خبيب وهو مصلوب بالجذع ، وهذا هو الأقرب وهو أيضاً الذي يُذكر في عامة كتب السير ، ف"جذعه" ، و "خذعة" التصحيف فيها فقط في النقاط وإلا الرسم واحد ، فالتصحيف فيها قريب ومحتمل .

((فاحتمله بجذعه ليلاً فذهب به فدفنه)) ؛ قيل في بعض المصادر إن النبي ﷺ بعث عمرو الضمري رضي الله عنه عيناً يتحرى ويتعرّف من أخبار القوم فدخل مكة بالليل وطاف بالبيت وأخذ يتمشى في مكة ويتسمّع الأخبار ، ثم مر بخبيب رضي الله عنه وفيه الحرس الذين كلّفوا لكنه تحيّن غفلةً منهم وأعطاه الله قوةً وصحةً وجسارة فاحتمله وأخذه إلى وادٍ قريب ودفنه . وجاء في بعض المصادر أن النبي ﷺ بعثه لقتل أبي سفيان ؛ والله تبارك وتعالى أعلم .

قال : ((وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان ابن أمية فقتله بأبيه)) .